وقفات بيانية

بن يحيى الطاهر ناعوس

الإهداء

إلى والدي الكريمين
إلى زوجتي و الأولاد
إلى أهل الألوكة الكرام
أهدي هذا الكتاب عسى أن يكون عربون
حب واحترام

بن يحيى الطاهر ناعوس

وهران يوم 2009/12/27م

مُقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة و السلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد-صلى الله عليه وسلم-، أما بعد:

في حركة الحياة المستمرة، و البحث عن الحقيقة المثلى، لا يستطيع الإنسان أن يقف على سر جمال الحياة إلا في كتاب رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه و لا من خلفه.

وفي رونق التعبير القرآني نجد العجائب و الغرائب و النفائس العظيمة والجميلة، التي هي آيات عاطرة تدل على حكمة الخالق و عظمته في شتى تمظهرات الكتاب المشهود أو الكتاب المقروء تنسيق محكم و بيان واضح .

ففي الكتاب المشهود يطلب منا ربنا أن نتأمل فيه بدائع المخلوقات التي تملأ الأفق و الرحب الشاسع: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾.

أمرٌ واضح جلي بالتدبر في الكون المشهود،وكذلك في الكتاب المقروء تحدي واضح ونحن نتحدث عن القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه من التحريف و التزييف و التلفيق فهو الكتاب المنقول إلينا بالتواتر كما أنزله رب العالمين بواسطة الأمين جبريل على أمين الأرض و السماء محمد -ﷺ-فتحدى به الإنس و الجن قاطبة على أن يأتوا بمثله أو بعشر سُور من مثله أو بسورة من مثله، وسيظلّ هذا التحدي قائماً حتى قيام الساعة لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

و من هنا وجدنا العلماء و الباحثين و الدارسين عبر العصور المختلفة التي مر بها العالم الإسلامي ابتداء من ابن عباس -رضي الله عنه- إلى الحسن البصري وصولا إلى الجاحظ و الجرجاني و الرماني و انتهاء إلى الرافعي و سيد قطب و غيرهم و القائمة لازالت طويلة ما دام هنالك حياة و وجود، و ظهر مع هذا ما يسمى بالإعجاز البياني في القرآن الكريم الذي استحوذ ـــ منذ وقت مبكر ـــ على قدر كبير من اهتمام العلماء وعنايتهم، وكان هو الدافع القوي وراء ما بذلوه من جهود مباركة، يرمون من ورائها إلى تحقيق هدف ديني أصيل، جدير بأنْ يبذل في سبيله كل جهد، وتستنفد كل طاقة.

ذلك أنَّ التسليم بأنَّ القرآن الكريم معجز للبشر، يؤدي بدوره إلى التسليم بأنه من عند الله – تعالى –، وهذا بدوره يؤدي إلى التسليم بأنَّ كل ما تضمنه حق خالص، لا سبيل للباطل إليه، وأنه الصراط المستقيم، وحبل الله المتين، وأنَّ العصمة والنجاة في الاحتماء بحصنه.

تأملات إيمانية في رحاب خواتيم سورة القصص

في جوِّ السورة العام:

ليس في هذا الوجود شيء يتعلم منه الإنسان ويقتبس من نوره إلا هذا الكتاب المنير والسنة المطهَّرة، فمَن حاول الأخْذ من غيرهما عاش في شقاء، وما حياة الأمم السابقة والحاضرة واللاحقة إلا دليل قاطع على ما نقول، كيف لا، وقد أقسم الله في القرآن الكريم – في سورة الفجر مثلاً – على أنَّ الطغاة والحضارات التي طغت وعلَت ستموت وتندَثر وتُمْحى وتتلاشَى، مهما بلغت من رُقِيٍّ أو تطور: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]؟!

وفي هذه السورة الكريمة دروس وعِبَر إيمانية تصقل القلب وتنعشه، لتعود له الحياة من جديد، دروس فيها من الحِكَم والقِيَم والمبادئ، التي لو فهمها المسلم والمسلمة لعاش في بحبوحة من العيش الرغيد، ولو وضعتها الأمة دستورًا لمزَّقت جميع الدساتير الأخرى، واكتفتْ بها نبراسًا ينير لها طريق السعادة المطلقة.

بين يدي السورة:

قال الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله –: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا وَكِيع، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن معد يكرب قال: أتينا عبدالله فسألناه أن يقرأ علينا: ﴿طسم﴾ [القصص: 1] المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم مَن أخذها من رسول الله ﷺ: خَبَّاب بن الأرَتِّ، قال: فأتينا خَبَّابَ بن الأرتِّ، فقرأها علينا – رضي الله عنه – "المسند" (419/1).

سميت سورة القصص بهذا الاسم لأن الله – تعالى – ذكر فيها قصة موسى – عليه السلام – مفصَّلة موضَّحة من حين ولادته إلى حين رسالته، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلَّى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه، ثم ذكر لنا فيها قصة قارون عبرة للمُعتبِر، وموعظة للمتَّعظ.

وقد ذكر العلماء أنها سورة مكية، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، تكاد تتخطَّفهم الأمم من كل حدَب وصَوْب، والمشركون هم أصحاب الحَوْل والطَّوْل، والجاه والسلطان، بل كان المسلمون في ضعف مادي بارز، وقلة من العدد والعدة، ما جعل الأمم الأخرى تطمع فيهم، فنزلت السورة لتضع الموازين الحقيقية للقُوَى والقِيَم، نزلت تقرِّر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود، هي قوة الله – سبحانه وتعالى – وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون، هي قيمة الإيمان.

فمَن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجرَّدًا من كل مظاهر القوة، ومَن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة، ولو ساندته جميع القوى، ومَن كانت له قيمة الإيمان فله

الخير كله، ومَن فقَد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً، بل هل نستطيع العيش بدون إيمان؟ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124].

قارون أنموذج للغطرسة والطغيان:

قال – تعالى –: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 76- 77].

الآيات الكريمات ترسم صورة واضحة جلية لقارون فهو من آل موسى – عليه السلام – وله المال الكثير، وقد اختارت فعلاً مناسبًا لتبيِّن لنا ضخامة الكنوز التي بحوزته، والفعل هو ناءَ يَنوءُ نَوْءًا: نَهَضَ بجَهْد ومَشَقَّة؛ لتعلم أخي القارئ أن هذه الثروة كانت عظيمة حتى تصل في بعض الحالات إلى أن هذه المفاتيح تسقط من أيدي العصبة؛ لأنه جاء في معاجم اللغة أن "ناءَ" تعني: سَقَط، وهو من الأضداد، ويقال: ناءَ بالحِمْل، إذا نهض به مُثْقَلاً، وناءَ به الحِمْلُ إذا أثْقَله، والمرأةُ تَنوءُ بها عَجيزَتُها؛ أي: تُثقلها، وهي تَنوءُ بعجيزَتِها؛ أي: تنهض بها مُثْقَلَةً، وأناءه الحِمْلُ مثل أناعَهُ؛ أي: أثْقَلَهُ وأمالَهُ، كما يقال: ذهب به وأذْهَبه بمعنًى، وقوله – تعالى –: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ [القصص: 76]، قال الفراء: أي: لَتُنيءُ بالعصبة: تُثقِلها.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: 78- 82].

صفة الكِبْر جلية نتيجة الكنوز الكثيرة الثقيلة الحمل حتى على العصبة، فوق ذلك العلمُ الذي بُني على أسس الأنانية والجبروت، والقلب فارغ من الإيمان الحق بالله – تعالى – ومن هنا فإن القصة على ما سبق تعرض قيمة المال، ومعها قيمة العلم، المال الذي يستخفُّ القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته، وهم يعلمون أنه أُوتِي من المال ما إن مفاتحه لتُعْيِي العُصْبَة من الرجال الأقوياء، والعلم الذي يعتزُّ به قارون، ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أُوتِي ذلك المال، ولكن الذين

أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه، ولا تستخفهم زينته، بل يتطلَّعون إلى ثواب الله، ويعلمون أنه خير وأبقى، وهو مَلاذُهم الوحيد، إليه يلجؤون في خِضَمِّ معارك الحياة، فهم قومٌ صنعهم الإيمان وبنى منظومتهم الفكرية العقلية، يتكلمون بمنطق إيماني خالص، بعيد عن الشوائب المترلة إلى حضيض الأرض.

ثم تتدخل يد الله فتُخْسَف به وبداره الأرض، لا يغني عنه ماله، ولا يغني عنه علمه، وتتدخل تدخُّلاً مباشرًا سافرًا كما تدخلت في أمر فرعون، فألقتْه في اليم هو وجنوده فكان من المغرَقين؛ ليكون عبرة للمعتبِرين، ودرسًا في قمة الوعظ لكل مَن يطغى بماله وعلمه وجبروته وغطرسته.

ودلَّت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزًا والصلاح حسيرًا، ويخشى من الفتنة بالبأس، والفتنة بالمال، عندئذ تتدخَّل يد القدرة سافرة متحدِّية، بلا ستار من الخلق، ولا سبب من قوى الأرض؛ لتضع حدًّا للشر والفساد[1].

وقد روى الإمام أحمد قال: حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاصُّ، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ((بينا رجل فيمَنْ كان قبلكم خرج في بُرْدَيْن أخضرين يختال فيهما، أمَر الله الأرض فأخذتْه، فإنه لَيَتجلجل فيها إلى يوم القيامة))؛ تفرَّد به أحمد، وإسناده حسن "المسند" (40/3).

فالكبر طامة كبرى، إذا لبسه الإنسان دكَّه في أسفل السافلين، وحطَّه ذليلاً منكسرًا لا قيمة له؛ قال – تعالى –: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ [طه: 105- 108].

العاقبة للمتقين المتواضعين:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ * وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

(1) سيد قطب، "في ظلال القرآن" سورة القصص.

تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 83- 88].

قال ابن كثير في "تفسيره" معلقًا على هذه الآيات الأواخر من هذه السورة الكريمة ما نصه: "يخبر – تعالى – أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضِعين، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض؛ أي: ترفعًا على خلق الله، وتعاظمًا عليهم، وتجبُّرًا بهم، ولا فسادًا فيهم"، فالتواضع سمة مطلوبة لبلوغ أعلى الدرجات يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، بل إن القدر يومئذ يُقاس بالأخلاق الكريمة وعلى رأسها التواضع، هو خلّة تزين بها النبي الأكرم ﷺ ودعا أصحابه إليها.

نموذج من أهل الإيمان الصابرين المحتسِبين:

خبَّاب بن الأرتِّ – رضي الله عنه – نموذج من الرجال الذين صنعهم القائد الأعظم محمد ﷺ فلقد صبر خبَّاب لموجة من العذاب و لم تُلِن له أيدي الكفار قناةً، فجعلوا يُلصِقون ظهره العاري بالرضف حتى ذهب لحمه، أجل كان حظ خبَّاب من العذاب كبيرًا، ولكن مقاومته وصبره كانا أكبر من العذاب.

لقد حوَّل كفار قريش جميع الحديد الذي كان بمترل خبَّاب والذي كان يُصْنَع منه السيوف، حوَّلوه كلَّه إلى قيود وسلاسل كان يُحْمَى عليها في النار حتى تستعر وتتوهَّج، ثم يطوَّق بها جسده ويداه وقدماه.

مرَّ به رسول الله ﷺ يومًا، والحديد المحمَّى فوق رأسه يلهبه ويشويه، فطار قلبه حنانًا وأسًى، ولكن ماذا يملك – عليه الصلاة والسلام – يومها لخبَّاب؟ لا شيء إلا أن يثبِّته ويدعو له.

هنالك رفع الرسول ﷺ كفَّيه المبسوطتين إلى السماء، وقال: ((اللهم انصر خبَّابًا)).

ويشاء الله ألا تمضي سوى أيام قليلة حتى يترل بأم أنمار قِصَاص عاجل، كأنما جعله القدر نذيرًا لها ولغيرها من الجلاَّدين، ذلك أنها أُصِيبت بسُعار عصيب وغريب جعلها – كما يقول المؤرخون – تعوي مثل الكلاب! وقيل لها يومئذ: لا علاج سوى أن يُكْوَى رأسها بالنار، وهكذا شهد رأسها العنيد سطوة الحديد المحمَّى يصبحه ويمسيه[2].

كانت قريش تُقاوم الإيمان بالعذاب، وكان المؤمنون يُقاوِمون العذاب بالتضحية، وكان خبَّاب واحدًا من أولئك الذين اصطفاهم الله ليجعل منهم أساتذةً في فن التضحية والفداء، ومضى خبَّاب ينفق وقته وحياته في خدمة الدين الذي خفقت أعلامه، و لم يكتفِ – رضي الله عنه – في

(2) رجال حول الرسول.

أيام الدعوة الأولى بالعبادة والصلاة، بل استثمر قدرته على التعليم؛ فكان يغشى بيوت بعض إخوانه من المؤمنين الذين يكتمون إسلامهم خوفًا من بطش قريش، فيقرأ معهم القرآن ويعلمهم إياه.

لقد نبغ في دراسة القرآن وهو يتنزل آيةً آيةً وسورةً سورةً، حتى إن عبدالله بن مسعود – وهو الذي قال عنه رسول الله ﷺ: ((مَن أراد أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنْزِل فليقرأه بقراءة ابن أم عبد)) – كان يعتبر خبَّابًا مرجعًا فيما يتَّصل بالقرآن حفظًا ودراسة، وهو الذي كان يدرِّس القرآن لفاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد – رضي الله عنهما – عندما فاجأهم عمر بن الخطاب متقلِّدًا سيفه الذي خرج به ليصفي حسابه مع الإسلام ورسوله، لكنه لم يكد يتلو القرآن المسطور في الصحيفة التي كان يعلِّم منها خبَّاب، حتى صاح صيحته المباركة: دلوني على محمد – صلى الله عليه وسلم.

فالعاقبة للمتقين المحتسبين الصابرين الذين غرسوا في نفوسهم الإيمان الراسخ، وجعلوه نبراسهم في أيام المِحَن والابتلاء، وهذا النموذج الرائع الذي سقناه فيما سلف خير دليل على أن الله ينصر المؤمنين والمؤمنات الصابرين المتمسِّكين بجذوة التقوى.

فلا عقيدة صحيحة إلا عقيدة التوحيد، والإسلام السَّمْح الذي جاء به خير المرسلين سيدنا محمد ﷺ فكل الآلهة المزعومة إلى زوال؛ فقد ثبت في "الصحيح" من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كلُّ شيء مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ))؛ "صحيح البخاري" برقم (3841)، و"صحيح مسلم" برقم (2256).

هذا، والله أعلم.

وقفة بيانية مع سورة قريش

مدخل:

اسم السورة برهان وبيان واضح على مكان نزول القُرآن الكريم في بداياته، واسم القبيلة التي ولد وعاش النبي ﷺ فيها، وتحدَّث لغتها، وهذا في حدّ ذاتِه دحْض لكلِّ مشكِّكٍ في صدْق نبوَّة المصطفى ﷺ فالمكان موجود والقبيلة عُرِفَت في التَّاريخ ولا زالتْ باقيةً إلى يوم الدين.

نصُّ السورة الكريمة:

قال الله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 1-4].

حقيقة الإيلاف بين اللغة والقرآن الكريم:

سنحاول – من خلال البحث عن مدْلول الكلِمة في المعاجم العربية – الوقوف على المعنى المعجمي السياقي والنسقي للكلمة؛ لندرك حقيقة الإيلاف في سياق النصِّ القرآني الشَّريف، وعلاقة هذه الكلمة بما قبلها وما بعدها.

ولهذا جاء في قواميس اللغة:

آلفتِ الإبلُ: جَمَعَتْ بَيْنَ شَجَرٍ وماءٍ، وألف المَكانَ: أَلِفَهُ، وألّف الدَّراهِمَ: جَعَلَها أَلْفًا، فآلَفَتْ هي، وألَّف فُلانًا مَكانَ كذا: جَعَلَهُ يأْلَفُهُ.

والإيلافُ في التَّنْزيلِ الحكيم: العَهْدُ، وشِبْهُ الإجازَةِ بالخفارَةِ، وأوَّلُ مَنْ أخَذَها هاشِمٌ مِن مَلِكِ الشَّامِ، وتَأويلُهُ: أنَّهُم كانوا سُكَّانَ الحَرَمِ، آمِنينَ في امْتيازِهِم وتَنَقُّلاتِهِم شِتاءً وصَيْفًا، والنَّاسُ يُتَخَطَّفُونَ من حَوْلِهِم، فإذا عَرَضَ لَهُم عارِضٌ، قالوا: نَحْنُ أهْلُ حَرَمِ اللهِ، فَلا يَتَعَرَّضُ لَهُمْ أحَدٌ، أو اللامُ للتَّعَجُّبِ، أي: اعْجَبُوا لإيلافِ قُرَيْشٍ، وكان هاشِمٌ يُؤَلِّفُ إلى الشَّامِ، وعَبْدُ شَمْسٍ إلى الحَبَشَةِ، والمُطَّلِبُ إلى اليَمَنِ، ونَوْفَلٌ إلى فارِسَ، وكان تُجَّارُ قُرَيْشٍ يَخْتَلِفُونَ إلى هذه الأمصارِ بحِبالِ هذه الإخْوَةِ، فَلا يُتَعَرَّضُ لَهُم، وكانَ كُلُّ أخٍ منهم أخَذَ حَبْلاً منْ مَلِكِ ناحِيةِ سَفَرِه أمانًا لَهُ.

وأَلَّفَ بَيْنَهُما تَأليفًا: أوْقَعَ الأُلْفَةَ، وألَّف أَلِفًا: خَطَّها، وألَّف الأَلْفَ: كَمَّلَهُ.

والمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُم مِنْ سادةِ العَرَبِ: أُمِرَ النبيُّ ﷺ بتَأَلُّفِهِم، وإعْطائِهِم لِيُرغِّبُوا مَنْ وَرَاءَهُم في الإسْلامِ، وهُم: الأقْرَعُ بنُ حابسٍ، وجُبَيْرُ بنُ مُطْعِم، والجَدُّ بنُ قَيْسٍ، والحارثُ بنُ هِشامٍ، وحَكيمُ بنُ حِزامٍ، وحَكيمُ بنُ طُلَيْقٍ، وحُوَيْطِبُ بنُ عَبْدِ العُزَّى، وخالِدُ بنُ أسِيدٍ، وخالدُ بنُ قَيْسٍ، وزَيْدُ الخَيْلِ، وسَعيدُ بنُ يَرْبُوعٍ، وسُهَيْلُ بنُ عَمْرِو بنِ عَبْدِ شَمْسٍ العامِرِيُّ، وسُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو الجُمَحِيُّ،

وصَخْرُ بنُ أمَيَّةَ، وصَفْوانُ بنُ أمَيَّةَ الجُمَحِيُّ، والعَبَّاسُ بنُ مِرْداسٍ، وعبدالرحمنِ بنُ يَرْبُوعٍ، والعَلاءُ بنُ جاريةَ، وعَلْقَمَةُ بنُ عُلاثَةَ، وأبو السَّنابِلِ عَمْرُو بنُ بَعْكَكٍ، وعَمْرُو بنُ مِرْداسٍ، وعُمَيْرُ بنُ وَهْبٍ، وعُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ، وقيس بن عدِن، وقَيْسُ بنُ مَخْرَمَةَ، ومالكُ بنُ عَوْفٍ، ومَخْرَمَةُ بنُ نَوْفَلٍ، ومُعاوِيةُ بنُ أبي سُفيانَ، والمُغِيرةُ بنُ الحارِثِ، والنُّضَيْرُ بنُ الحارِثِ بنِ عَلْقَمَةَ، وهِشامُ بنُ عَمْرٍو، رضي الله عنهم.

وتألَّفَ فلانًا: دَارَاهُ، وقارَبَهُ، ووصَلَهُ حتى يَسْتَميلَهُ إليه.

وعلى هذا؛ فالإيلاف ثلاثة أوجه:

أحدُها: أنَّ الإيلاف هو الإلف، قال علماء اللغة: ألفت الشيءَ وألفته إلفًا وإلافًا وإيلافًا بمعنى واحد؛ أي: لزمته، فيكون المعنى لإلْف قريش هاتين الرِّحْلتين، فتتصلا ولا تنقطعا.

وقرأ ابن عامر: (لإلاف قريش)، وقرأ الآخرون: (لإيلاف قريش)، وقرأ عكرمة: (ليلاف قريش).

وثانيها: أن يكون هذا من قولِك: لزمت موضع كذا وألزمنيه الله، كذا تقول: ألفت كذا، وألفنيه الله، ويكون المعنى إثْبات الألفة بالتَّدبير الَّذي فيه لطف، ألف بنفسه إلفًا وآلفه غيره إيلافًا، والمعنى أنَّ هذه الألفة إنَّما حصلت في قريْش بتدبير الله، وهو كقوله: ﴿ولكن اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 63]، وقال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ [آل عمران: 13].

وقد تكون المسرَّة سببًا للمؤانسة والاتفاق، كما وقعت عند انهزام أصحاب الفيل لقريش، فيكون المصدر ههنا مضافًا إلى المفعول، ويكون المعنى لأجل أن يجعل الله قريشًا ملازمين لرحلتيهم.

وثالثها: أن يكون الإيلاف هو التهْيئة والتَّجهيز، وهو قول الفرَّاء وابن الأعرابي، فيكون المصدر على هذا القول مضافًا إلى الفاعل، والمعنى لتجْهيز قريش رحلتَيْها حتَّى تتَّصلا ولا تنقطعا، وقرأ أبو جعفر: (ليلاف) بغير همز فحذف همزة الإفْعال حذفًا كليًّا، وهو كمذهبه في ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: 5] وقد مرَّ تقريره[3].

الأسرار البيانيَّة للام المكسورة في بداية السورة:

من عجائب القرآن الكريم ومعجزاته أنَّ كلَّ حرف فيه هو تحدٍّ صارخ لكلّ البشر على أن يأتُوا بمثله، وفي هذه السورة على قِصَرها معجزة عجيبة ممثَّلة في حرْف اللاَّم المكسورة التي

(3) "تفسير مفاتيح الغيب"، بتصرف.

استهلَّتْ بها السورة: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾، "فاللام في قوله: (لإيلاف) تحتمِل وجوهًا ثلاثة، فإنَّها إمَّا أن تكون متعلّقة بالسورة التي قبلها، أو بالآية التي بعدها، أو لا تكون متعلِّقة لا بما قبلها ولا بما بعدها.

أمَّا الوجه الأوَّل – وهو أن تكون متعلّقة بما قبلها – ففيه احتمالات:

الأوَّل: وهو قول الزجَّاج وأبي عبيدة أنَّ التقدير: "فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلاف قريش"؛ أي: أهلك الله أصحابَ الفيل لتبقى قريش، وما قد أَلِفوا من رحلة الشتاء والصيف.

القول الثاني: وهو أنَّ اللام في: ﴿لإيلاف﴾ متعلّقة بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾ وهو قوْل الخليل وسيبويه، والتقدير: "فلْيعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلاف قريش"؛ أي: ليجعلوا عبادتهم شكرًا لهذه النعمة واعترافًا بها، فإن قيل: فلم دخلت الفاء في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾؟ قُلنا: لما في الكلام من معنى الشَّرط؛ وذلك لأنَّ نِعَم الله عليهم لا تحصى، فكأنَّه قيل: إن لم يعْبدوه لسائر نِعَمه فليعبده لهذه الواحدة الَّتي هي نعمة ظاهرة.

القول الثَّالث: أن تكون هذه اللام غير متعلِّقة، لا بما قبلَها ولا بِما بعدها، قال الزجَّاج: قال قوم: هذه اللام لام التعجُّب، كأنَّ المعنى: اعجَبوا لإيلاف قريش؛ وذلك لأنَّهم كلَّ يوم يزدادون غيًّا وجهلاً وانغماسًا في عبادة الأوْثان، والله تعالى يؤلِّف شملهم ويدفع الآفات عنهم، وينظِّم أسباب معايشهم؛ وذلك لا شكَّ أنَّه في غاية التعجُّب من عظيم حِلْم الله وكرمه، ونظيرُه في اللُّغة قولك: لزيد وما صنعنا به، ولزيد وكرامتنا إيَّاه، وهذا اختيار الكسائي والأخفش والفرَّاء.

وأمَّا فيما يخصّ التَّكرير في قوله: ﴿لإيلاف قُرَيْشٍ إيلافهم﴾، فهو أنَّه أطلق الإيلاف أوَّلاً ثم جعل المقيَّد بدلاً لذلك المطْلق؛ تفخيمًا لأمر الإيلاف، وتذكيرًا لعظيم المنَّة فيه، والأقْرب أن يكون قولُه: ﴿لإيلاف قُرَيْشٍ﴾ عامًّا يجمع كلَّ مؤانسة وموافقة كانت بينهم، فيدخل فيه مقامهم وسيرهم وجَميع أحوالِهم، ثمَّ خصَّ إيلاف الرِّحْلتين بالذِّكْر لسبب أنَّه قوام معاشهم؛ كما في قولِه: ﴿وَجِبْرِيلُ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: 98].

أسرار المقابلات في السورة:

وبهذا فالسورة صورة واضحة لنِعَم الله الجليَّة التي خصَّ بها قريشًا، فقد أمَّنهم الله حين خاف

النَّاس، وأطعمهم حين جاع الناس، وجلب لهم الرّزق من كلّ فج عميق، وحفِظ لهم البيت من هجمة أصحاب الفيل، فواجبهم عبادته – سبحانه – وشكر نعمِه الظَّاهرة.

وفوق ذلك منَّ عليْهِم أن جعل منهم النبيَّ الخاتم ﷺ يعْرفون نسبه وشرفه وأخلاقه؛ قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152].

وعليه؛ فإنَّ السورة تحوي درسًا في ضرورة مقابلة نعم الله بالشُّكر والعبادة، والإذعان للمولى – عزَّ وجلَّ.

فيا أيّها المؤمنون والمؤمنات، ابحثوا عن نِعَم الله السَّابغة عليْنا من فوقِنا إلى تحتِنا، بل إنَّ مُحيطَنا كلَّه هو في حدِّ ذاته نعم من الله تعالى.

والحمد لله تملأ الميزان.

وقفة بيانية مع سورة الماعون

في رحاب السورة الكريمة:

في القرآن الكريم دروسٌ وعبر، تصلح لكل زمان ومكان لاستقامة حياة الإنسان، وتجعله يؤدي دور الخلافة على أكمل وجه، وأحسن حال، في غير إفراط ممجوج أو تفريط مخلٍّ، فالاستقامة الكاملة منبعها الكتاب الحكيم، والسعادة الحقَّة دستورها الكتاب المبين، وفي هذا يقول صاحب "الظلال" في مستهل تفسيره لهذه السورة: "إنَّ هذا الدين ليس دينَ مظاهر وطقوس، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر، ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرُّد، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح، وتتمثَّل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى".

ثبتٌ للنص الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: 1- 7].

الرؤية بين العين والقلب:

إن الرُّؤية تكون بالعين عندما تتعدَّى إلى مفعول واحد، وتكون بمعنى العلم عندما تتعدَّى إلى مفعولين، يقال: رأى زيدًا عالِمًا، ورَأى رأيًا ورُؤيةً وراءَةً، مثل "راعَةٍ"، والرأيُ في اللغة معروفٌ، وجمعه: أرآءٌ، وآراءٌ أيضًا مقلوب، ورَئيٌّ على فَعيل، ويقال أيضًا: به رَئِيٌّ من الجن؛ أي: مَسٌّ، ويقال: رأى في الفقه رَأْيًا، تقول للواحد المذكر: أَرأَيتَكَ زيدًا ما حاله؟ بفتح التاء والكاف، وتقول في المؤنث: أَرَأَيْتَكِ زيدًا ما حالُه يا امرأة؟ فتفتح التاء على أَصل خطاب المذكر وتكسر الكاف؛ لأَنها قد صارت آخرَ ما في الكلمة والمُنْبَئَةَ عن الخطاب، فإن عدَّيْتَ الفاعل إلى المفعول في هذا الباب صارت الكافُ مفعولةً، تقول: رأَيْتُني عالمًا بفلان، فإذا سألتَ عن هذا الشرط قلتَ للرجل: أَرَأَيْتَكَ عالمًا بفلان؟ وللاثنين أَرأَيتُماكما عالمين بفلان؟ وللجمع أَرَأَيْتُمُوكُمْ؛ لأَن هذا في تأْويل أَرأَيتُم أَنْفُسَكم؟ وتقول للمرأَة: أَرأَيتِكِ عالمَة بفُلانٍ، بكسر التاء، وعلى هذا قياس هذين البابين.

وروى المنذري عن أَبي العباس قال: أَرأَيتَكَ زيدًا قائمًا؟ إذا اسْتَخْبَر عن زيد، ترك الهمز، ويجوز الهمز، وإذا استخبر عن حال المخاطب، كان الهمز الاختيار، وجاز تَرْكُه؛ كقولك: أَرَأَيتَكَ نَفْسَكَ؟ أَي: ما حالُك؟ ما أَمْرُك؟ ويجوز: أَرَيْتَكَ نَفْسَكَ؟ قال ابن برِّي: وإذا جاءت أَرأَيْتَكُما

وأَرأَيْتَكُمْ بمعنى: أَخْبِرْني، كانت التاء موَحَّدة، فإن كانت بمعنى العِلْم، ثَنَّيْت وجَمَعْت، قُلْتَ: أَرأَيْتُماكُما خارِجَيْنِ؟ وأَرأَيْتُمُوكُمْ خارِجينَ؟ وقد تكرَّر في الحديث أَرأَيْتَكَ وأَرأَيْتَكُمْ وأَرأَيْتَكما، وهي كلمة تقولها العرب عند الاستخبار بمعنى: أَخبِرْني وأَخْبِراني وأَخْبِرُوني، وتاؤُها مفتوحة أَبدًا.

ورجل رَءَّاءٌ: كَثيرُ الرُّؤيَةِ؛ قال غيلان الرَّبَعي: كأَنَّها وقَدْ رَآها الرَّءَّاء ويقال: رأَيتُه بعَيْني رُؤيَةً، ورأَيتُه رَأْيَ العينِ؛ أَي: حيث يقع البصر عليه.

ويقال: من رأْيِ القَلْبِ ارْتَأَيْتُ، وأَنشد:

أَلاَ أَيُّهَا المُرْتَئِي فِي الأُمُورِ سَيَجْلُو الْعَمَى عَنْكَ تِبْيانُهَا

وقال أَبو زيد: إذا أَمرْتَ مَنْ رأَيْتَ قلت: ارْأَ زيدًا، كأَنَّكَ قلت: ارْعَ زيدًا، فإذا أَردت التخفيف قلت: رَ زيدًا، فتسقط أَلف الوصل؛ لتحريك ما بعدها، قال: ومن تحقيق الهمز قولك: رأَيْت الرجل، فإذا أَردت التخفيف قلت: رأَيت الرجل، فحرَّكتَ الأَلف بغير إشباع الهمز ولم تسقط الهمزة؛ لأَن ما قبلها متحرك.

وفي حديث النبي ﷺ: ((إنَّ أَهلَ الجَنَّةِ لَيَتَراءَونَ أَهلَ عِلِّيِّين كما تَرَوْنَ الكَوْكَب الدُّرِّيَّ في كَبِدِ السماء))؛ قال شمر: يتَراءَوْنَ؛ أَي: يتَفاعَلون؛ أَي: يَرَوْنَ، يَدُلُّ على ذلك قولُه: ((كما تَرَوْن)).

ومن هنا، وجدنا بعض القُرَّاء قرأ الفعل الأول للسورة (أريت) بحذف الهمزة، وقال الزجاج: وهذا ليس بالاختيار؛ لأن الهمزة إنما طرحت من المستقبل نحو يرى وأرى وترى، فأمَّا رأيت فليس يصح عن العرب فيها "ريت"، ولكن حرف الاستفهام لما كان في أول الكلام سهَّل إلغاء الهمزة، ونظيره:

صَاحِ هَلْ رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ رَدَّ فِي الضَّرْعِ مَا قَرَى فِي الْحِلاَبِ

في حين قرأ ابن مسعود (أرأيتك) بزيادة حرف الخطاب كقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: 62].

وعليه؛ فقوله – تعالى –: ﴿أَرَأَيْتَ﴾؛ معناه: هل عرفتَ الذي يكذب بالجزاء مَن هو؟ فإن لم تعرفه: فهو الذي يَدُعُّ اليتيم.

الدعُّ بين القرآن الكريم واللغة:

جاء في قواميس اللغة العربية دَعَّه يَدُعُّه دَعًّا؛ بمعنى: دَفَعَه في جَفْوة وقسوة، وقال ابن دريد: دَعَّه: دَفَعَه دَفْعًا عنيفًا، وفيه معنى الغلظة والشراسة في هذا السلوك الشائن.

وفي القرآن المجيد: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: 2]؛ أي: يَعْنُفُ به عُنْفًا دَفْعًا وانْتِهارًا، وفيه أيضًا: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: 13]، وبذلك فسَّره أبو عبيدة فقال: يُدْفَعُون دَفْعًا عَنِيفًا، وفي الحديث: ((اللهم دُعَّها إلى النار دَعًّا))، وقال مجاهد: دَفْرًا في أَقْفِيَتِهم، وفي حديث الشعبي: أَنهم كانوا لا يُدَعُّون عنه ولا يُكْرَهُون؛ الدَّعُّ: الطرد والدَّفْعُ.

فهذا بيانٌ صريحٌ على أن القرآن الكريم يبرز المعنى الحقيقي للدعِّ، مع ربطه بالفاعل والمفعول به؛ لتبيان مدى قساوة صاحب هذا السلوك، فيجازى يوم القيامة بنفس العمل؛ ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾، فيصبح الفاعل مفعولاً به، والملائكة هي التي تدعُّه دعًّا.

ضروب الحضِّ في القرآن الكريم واللغة:

الحَضُّ: ضرْبٌ من الحثِّ في السَّير والسَّوق وكل شيء، والحَضُّ أَيضًا: أَن تَحُثَّه على شيءٍ لا سير فيه ولا سَوْق، حَضَّه يَحُضُّه حَضًّا وحَضَّضَه وهم يَتَحاضُّون، والاسم الحُضُّ والحِضِّيضَى كالحِثِّيثَى؛ ومنه الحديث: ((فأَين الحِضِّيضَى؟))، والحُضِّيضَى أَيضًا، والكسر أَعلى، ولم يأْتِ على فُعِّيلَى بالضم غيرُها، قال ابن دريد: الحَضُّ والحُضُّ لغتان كالضَّعْف والضُّعْف، قال: والصحيح ما بدأْنا به أَن الحَضَّ المصدر والحُضُّ الاسم.

الأَزهري: الحَضُّ: الحَثُّ على الخير، ويقال: حَضَّضْت القوم على القتال تَحْضِيضًا إِذا حَرَّضْتهم ودعوتهم إليه دعاء فيه حرصٌ وتشديدٌ، وفي الحديث ذكر الحَض على الشيء جاء في غير موضع، وحَضَّضَه؛ أَي: حَرَّضه، والمُحاضَّة: أَن يَحُثَّ كلُّ واحد منهما صاحبَه.

والتحاضُّ: التحاثُّ، وقُرِئ: ولا تَحاضُّون على طعام المِسْكِين؛ قرأَها عاصم والأَعمش بالأَلف وفتح التاء، وقرأَ أهل المدينة: ولا تَحُضُّون، وقرأَ الحسن: ولا تَحُضُّون، وقرأ بعضهم: ولا تُحاضُّون، برفع التاء؛ قال الفرَّاء: وكلٌّ صوابٌ، فمَن قرأَ تُحاضُّون فمعناه: تُحافِظون، ومن قرأَ تَحاضُّون فمعناه: يَحُضُّ بعضُكم بعضًا، ومَن قرأَ تَحُضُّون فمعناه: تأْمرون بإِطعامه، وكذلك يُحُضُّون، ابن الفرج: يقال احْتَضَضْتُ نفسي لفلان، وابْتَضَضْتُها إِذا اسْتَزَدْتها.

حوصلة: يدفع الكافر بالدين في مكان لا يجب فيه الدفع بل يحرم ههنا، وينتهي عن الدفع في حال يجب فيها الدفع لوجود المصلحة العظمى المتمثِّلة في انتقال الخير إلى غيره، فكأن المكذِّب بيوم القيامة انتكست عنده الفطرة، وانقلبت موازين القيم رأسًا على عقب.

وعلى هذا؛ فإن "حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي تحوُّلٌ في القلب يدفعه إلى الخير والبرِّ بإخوانه في البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحماية، والله لا يريد من الناس

كلمات، إنما يريد منهم معها أعمالاً تصدقها، وإلا فهي هباء، لا وزن لها عنده ولا اعتبار"[4].

سر اتصال السابق باللاحق:

أجمع المفسرون – في العموم – على أن الآيات الثلاث الأُوَل مكية، والآيات الأربع المتبقية من السورة مدنية؛ لأنها تشمل خصائص الآي المدني، فما هو سرُّ ارتباط المكي و المدني في هذه السورة؟

وفي ذلك وجوهٌ؛ أوَّلها: أن هذه السورة عيِّنة على تكامل القرآن الكريم تكاملاً عجيبًا، لا يدعو إلى الشك أو الرَّيب، وفيه دحضٌ لأقوال المستشرقين الذين يقولون بتعدد القرآن الكريم، وعليه فالقرآن الحكيم كلٌّ متكامل.

وثانيها: من حيث اللفظُ: فقد تماسك النصُّ المقدس في هذه السورة بواسطة حرف العطف الفاء، الذي أمسك الآي المكي والآي المدني، وجمع بينهما جمعًا فيه إعجازٌ، ومن حيث المعنى فبيانه: أن إقدامه على إيذاء اليتيم وتركه للحضِّ تقصير فيما يرجع إلى الشَّفَقة على خلق الله، وسهوه في الصلاة تقصيرٌ فيما يرجع إلى التعظيم لأمر الله، فلمَّا وقع التقصير في الأمرين فقد كمُلت شقاوته، فلهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ﴾ وهذا اللفظ إنَّما يستعمل عند الجريمة الشديدة كقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1]، ﴿فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 79]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1]، ويروى أن كلَّ أحد ينوح في النار بحسب جريمته، فقائل يقول: ويلي من حبِّ الشرف! وآخر يقول: ويلي من الحميَّة الجاهلية! وآخر يقول: ويلي من صلاتي!

يتبع...

(4) سيد قطب، "في ظلال القرآن" سورة الماعون.

وقفة بيانية مع سورة الكوثر

مدخل:

القرآن الكريم كتاب ربِّ العالمين، أنزله على سيد البشر- صلَّى الله عليه وسلَّم- وهو كتاب مليءٌ بالمعجزات والبيانات، بل كلُّه معجزات، التي لا تحتاج إلى دليل ولا برهان، فكيف يحتاج البرهان إلى برهان؟! أو هل يحتاج النهار إلى دليل؟! ولله المثل الأعلى.

بين يدي السورة:

وعلى هذا سنقف في هذه السورة الكريمة، التي هي مواساة للنبي الأكرم - صلَّى الله عليه وسلَّم- قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

وقد روى الإمام أحمد في "مسنده"[5]، قال: حدثنا محمد بن فضيل، عن المختار بن فُلْفُل، عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه متبسمًا، إما قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: ((إنه أنزلت عليَّ آنفا سورة))، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها، قال: ((هل تدرون ما الكوثر؟))، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((هو نهر أعطانيه ربي - عز وجل - في الجنة، عليه خيرٌ كثيرٌ، ترِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يُختَلَج العبد منهم، فأقول: يا ربّ، إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)).

الكوثر بين اللغة والقرآن الكريم:

نبحر مع هذه الكلمة في قواميس اللغة العربية لنعرف المدلولات اللغوية لهذه الكلمة؛ لندرك في النهاية أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، فـــ(الكَثْرَةُ) في اللغة نقيض (القلَّة)، وقد كَثُرَ الشيءُ فهو كَثِيرٌ، وقومٌ كَثِيرٌ، وهم كَثِيرونَ، وأكْثَرَ الرجلُ؛ أي: كَثُرَ مالهُ، ويقال: كاثَرْناهُمْ فَكَثَرْناهُمْ؛ أي: غلبناهم بالكَثْرَةِ، واسْتَكْثَرْتُ من الشيء؛ أي: أكْثَرتُ منه، والكُثْرُ - بالضمِّ - من المال: الكَثِيرُ، ويقال: ماله قُلٌّ ولا كُثْرٌ، وأنشد أبو عمرو لرجل من ربيعة:

فَإِنَّ الْكُثْرَ أَعْيَانِي قَدِيمًا وَلَمْ أُقْتِرْ لَدُنْ أَنِّي غُلامُ

يقال: الحمدُ لله على القُلِّ والكُثْرِ، والقِلِّ والكِثْرِ.

([5]) مسند أحمد، (102/3).

والتكاثُرُ: المُكاثَرةُ، وعددٌ كاثِرٌ؛ أي: كَثيرٌ، قال الأعشى:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مَنْهُمْ حَصًى وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

وفلان يَتَكَثَّرُ بمال غيره، ابن السكيت: فلان مَكْثورٌ عليه، إذا نَفِد ما عنده وكَثُرَتْ عليه الحقوق، والكَوثر من الرجال: السيد الكَثيرُ الخير، قال الكميت:

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا بْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ وَكَانَ أَبُوكَ ابنُ الْعَقَائِلِ كَوْثَرَا

وقد جاء في "القاموس المحيط" للفيروزآبادي أن (الكَوْثَر) تعني: الكثيرَ من كلِّ شيء، والكثيرَ المُلْتَفَّ من الغُبارِ، والإسلام، والنُّبُوَّة، والأتباع، وجاء في "مقاييس اللغة" أن (الكاف والثاء والراء) أصلٌ صحيح يدلُّ على خِلاف القِلّة، من ذلك الشَّيء الكثير، وقد كَثُر، ثم يُزَاد فيه للزِّيادة في النّعت فيقال: الكوثر: الرّجلُ المِعطاء، وقد تَكَوْثَر الغُبار إذا كثر؛ قال حسان بن نُشبة:

أَبَوْا أَنْ يُبِيحُوا جَارَهُمْ لِعَدُوِّهِمْ وَقَدْ ثَارَ نَقْعُ الْمَوْتِ حَتَّى تَكَوْثَرَا

وقد تَكَوْثَرَ، ورجل كَوْثَرٌ: كثير العطاء والخير، والكَوْثَرُ، السيد الكثير الخير؛ قال الكميت:

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا بْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ وَكَانَ أَبُوكَ ابنُ الْعَقَائِلِ كَوْثَرَا

وقال لبيد:

..... وعِنْدَ الرِّدَاعِ بَيْتُ آخَرَ كَوْثَرِ

والكَوْثَرُ: النهر؛ عن كراع.

والكوثر: نهر في الجنة يتشعَّب منه جميع أَنهارها، وهو للنبي ﷺ خاصة.

وفي حديث مجاهد: ((أُعطِيتُ الكَوْثَر، وهو نهر في الجنة))، وهو فَوْعَل من الكثرة و(الواو) زائدة، ومعناه الخير الكثير، وجاء في التفسير: أَن الكوثر القرآن والنبوَّة، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾؛ قيل: الكوثر ههنا الخير الكثير الذي يعطيه الله أُمته يومَ القيامة، وكلُّه راجع إِلى معنى الكثرة.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: أَن الكوثر نهر في الجنة أَشدُّ بياضًا من اللبن وأَحلى من العسل، في حافتَيه قِبابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ، وجاء أَيضًا في التفسير: أَن الكوثر الإِسلام والنبوَّة، وجميع ما جاء في تفسير الكوثر قد أُعطيه النبي ﷺ أُعطي النبوَّة، وإِظهار الدين الذي بعث به على كلِّ دين، والنصر على أَعدائه، والشفاعة لأُمته، وما لا يحصى من الخير، وقد أُعطي من الجنة على قدر فضله على أَهل الجنة، صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقال أَبو عبيدة: قال عبد الكريم أَبو أُمية: قَدِمَ فلانٌ بكَوْثَرٍ كَثير، وهو فوعل من الكثرة، وقال أَبو تراب: الكَيْثَرُ بمعنى الكَثِير؛ وأَنشد:

هَلِ الْعِزُّ إِلا اللُّهَى وَالثَّرَا ءُ وَالْعَدَدُ الْكَيْثَرُ الأَعْظَمُ

فالكَيْثَرُ والكَوْثَرُ واحد.

القانون القرآني في حفظ النعم:

فهذه السورة تضع أمامنا منهجًا واضحَ المسالك، بيِّن المعالم في حفظ النعم والتقرُّب بها إلى الله – تعالى – لأن هذا اللفظ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة، وأن خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة، والخلف في كلام الله – تعالى – محال، فوجب في حكمة الله – تعالى – إبقاؤه في دار الدنيا إلى حيث يصل إليه تلك الخيرات، فكان ذلك كالبشارة له والوعد بأنهم لا يقتلونه، ولا يقهرونه، ولا يصل إليه مكرهم، بل يصير أمره كلَّ يوم في الازدياد والقوة، أنه – عليه السلام – لما كفروا، وزيف أديانهم، ودعاهم إلى الإيمان، اجتمعوا عنده، وقالوا: إن كنت تفعل هذا طلبًا للمال، فنعطيك من المال ما تصير به أغنى الناس، وإن كان مطلوبك الزوجة، نزوجك أكرم نسائنا، وإن كان مطلوبك الرياسة، فنحن نجعلك رئيسًا على أنفسنا، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا أعطيناك الكوثر﴾؛ أي: لما أعطاك خالق السموات والأرض خيرات الدنيا والآخرة، فلا تغترَّ لما لهم ومراعاتهم.

إعطاء الكوثر الذي هو الحوض أو نهر في الجنة – كما جاء في الأحاديث الكثيرة – نعمة من الله – تعالى – توجب الشكر، وأفضل شكر هو أداء الفرائض؛ كما جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله – تعالى – قال: ((من عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه))؛ رواه البخاري.

ومن هنا نفهم قوله – تعالى –: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، الذي جاء عقب التذكير بالنعمة، فإذا كان العبد شاكرًا لربِّه، مقرًّا بنعم الله عليه، عن طريق الفعل والقول معًا، فإن النتيجة الحتمية حماية الله للعبد؛ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، وهذا المعنى يؤيِّد قول الباري – سبحانه –: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62، 63]، هذا والله – تعالى – أعلم.

تأملات بيانية في سورة الكافرون

توطئة:

كل مسلم ومسلمة همه أن يتبع الطريق المستقيم، البعيد عن الدخن أو أي شائبة تشوبه؛ ليصل إلى المقصد العلوي، الذي يهدف من خلال عبادته لله تعالى تحقيقه، المتمثل في مرضاة الله تعالى.

وفي هذه السورة الكريمة رسم لمنهج قويم ينبغي على كل مسلم ومسلمة سلوكه لبلوغ النجاة في الدنيا والآخرة، فمع النص النوراني قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

الكفر بين اللغة والقرآن الكريم:

نقف في هذا المبحث على المعاني الجمة التي وردت في القرآن الكريم، وفي اللغة العربية لكلمة (كفر)، الكاف والفاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنىً واحد، وهو السَّتْر والتَّغطية والإخفاء، يقال لمن غطَّى دِرعَه بثوب: قد كَفَر دِرعَه، والمُكَفِّر الرجل المتغطِّي بسلاحه، فأما قولُه:

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يدًا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلامُهَا.

ويقال: إنَّ (الكافر) مَغِيب الشَّمس، ويقال: بل (الكافر) البحر، وكذلك فُسِّرَ قولُ الآخَر:

فَتَذَكَّرَا ثَقَلاً رَثِيدًا بَعْدَمَا أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا فِي كَافِرِ

والنهر العظيم كافر، تشبيهًا بالبحر، ويقال للزَّارع: كافر؛ لأنَّه يُغطِّي الحبَّ بتُراب الأرض؛ قال الله – تعالى –: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد:20].

ورَمادٌ مكفور: سَفَت الرِّيحُ الترابَ عليه حتى غطَّتْه، قال ابن فارس: و(الكُفْر) ضدُّ الإيمان، سمِّي لأنَّه تَغْطِيَةُ الحق، وكذلك كُفْران النِّعمة: جُحودها وسَترُها، والكافور: كِمُّ العِنَب قبل أن يُنوِّر، وسمِّي كافورًا لأنَّه كفَر الوَلِيع؛ أي: غطَّاه، قال: ويقال له: الكُفُرَّى، فأمَّا الكَفِرات والكَفَر فالثَّنايا من الجبال، ولعلَّها سمِّيت كَفِرَات لأنَّها متطامنة، كأنَّ الجبالَ الشوامخَ قد سترَتْها، قال: والكَفْرُ من الأرض: ما بَعُدَ من الناس، لا يكاد ينْزلُه ولا يمرُّ به أحد، ومَن حَلَّ به فهم أهل الكُفور، ويقال: بل الكُفور: القُرَى. ومن هنا، فالنداء في هذه السورة موجه للذين جحدوا نعمة الله – تعالى –، وغطَّوا الحقَّ بالباطل، فهم يعلمون أن الخالق هو الله – تعالى – ولكنهم يجحدون.

وعلى هذا؛ فإن الكفر في الاصطلاح الشرعي منبثق – على العموم – من معناه اللغوي، الذي يعني الستر والتغطية والجحود، فهو ضدُّ الإيمان؛ لانعدام وجود – عند الكافر – الإيمان بالله

ورسله، سواء كان معه تكذيب، أم لم يكن معه تكذيب، بل مجرد شك وريب أو إعراض أو حسد، أو كبر أو اتباع لبعض الأهواء الصادة عن اتباع الرسالة الخاتمة، وإن كان المكذب أعظم كفرًا، وكذلك الجاحدُ والمكذِّب حسدًا، مع استيقان صدق الرسل.

أنواع الكفر:

وقد قسم العلماء الكفر إلى نوعين؛النوع الأول: كفر أكبر يخرج من الملة، وهو خمسة أقسام:

القسم الأول: كُفرُ التَّكذيب، والدَّليلُ قوله – تعالى –: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: 68].

القسم الثاني: كفر الإباء والاستكبار مع التصديق، والدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

القسم الثالث: كفرُ الشكِّ، وهو كفر الظن، والدليل قوله – تعالى –: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف:35-38].

القسم الرابع: كفرُ الإعراضِ، والدليلُ قولُه – تعالى –: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: 3].

القسم الخامس: كفرُ النِّفاقِ، والدليلُ قوله – تعالى –: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3].

النوع الثاني: كفرٌ أصغرُ لا يُخرجُ من الملة، وهو الكفرُ العملي، وهو الذنوب التي وردت تسميتها في الكتاب والسنة كُفرًا، وهي لا تصلُ إلى حدِّ الكفر الأكبر، مثل كفر النعمة المذكور في قوله – تعالى –: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: 112]، ومثلُ قتال المسلم المذكور في قوله ﷺ:))سباب المسلم فُسوقٌ، وقتالُه كفر))،وفي قوله ﷺ: ((لا تَرجعوا بعدي كُفَّارًا يضربُ بعضكم رقابَ بعض))،ومثل الحلف بغير الله؛ قال ﷺ: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)).

وقد جعل الله مُرتكِبَ الكبيرة مُؤمنًا؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178]، فلم يُخرج القاتلَ من الذين آمنوا، وجعله أخًا لولي القصاص فقال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 178]؛والمرادُ:

أخوة الدين، بلا ريب، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 9، 10]؛ انتهى من "شرح الطحاوية" باختصار.

وملخص الفروق بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر:

أ- أنَّ الكفر الأكبر يُخرجُ من الملة، ويحبط الأعمال، والكُفر الأصغر لا يخرج من الملة ولا يحبط الأعمال، لكن ينقصُها بحسبه، ويعرِّضُ صاحبَها للوعيد.

ب- أنَّ الكفرَ الأكبرَ يُخلِّد صاحبه في النار، والكفر الأصغر إذا دخل صاحبه النار فإنه لا يخلَّد فيها، وقد يتوب الله على صاحبه، فلا يُدخله النار أصلاً.

ج- أن الكفر الأكبر يُوجب العداوة الخالصة بين صاحبه وبين المؤمنين، فلا يجوز للمؤمنين محبته وموالاته ولو كان أقرب قريب، وأما الكفر الأصغر فإنه لا يمنع الموالاة مطلقًا، بل صاحبه يُحَبُّ ويُوالى بقدر ما فيه من الإيمان، ويبغض ويُعادى بقدر ما فيه من العصيان[6].

المنهج الحق في السورة:

في هذه السورة الكريمة رسم للمنهج الحق الذي ندعو الله - تعالى - أن يثبتنا عليه حتى نلقاه، ومن هنا فلا مجال للتردد، إما أن تكون من أتباع النبي المصطفى ﷺ وإما أن تسلك سبيلاً غير هذا السبيل، والعياذ بالله - تعالى - فالنبيُّ الكريم دعاه ربُّه أن يقول للكافرين بصراحة تامة: أنه لا يعبد ما يعبد هؤلاء المشركون من أصنام وأوثان وأنصاب وأهواء، وأن عبادته تكون لله وحده، ولهذا فإن الله - تعالى - يغضب على كلِّ من اتخذ من دون الله تعالى ندًّا.

وقد جاء في الأثر عن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما وعن الصحابة أجمعين - قوله: إن لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه ممّا تكره، فلا تطعها فيما تحملك عليه ممّا تهوى، فهذا يثبت ضرورة التشبث بالحق في جميع الأحوال.

معنى العبادة في اللغة والقرآن الكريم:

جاء في "مقاييس اللغة" ما نصه: العين والباء والدال أصلانِ صحيحان، كأنَّهما متضادَّان، والأول من ذينك الأصلين يدلُّ على لِين وذُلٍّ، والآخر على شِدّة وغِلَظ، فالأوَّل العَبد، وهو المملوك، والجماعةُ العبيدُ، وثلاثةُ أعبدٍ وهم العِبادُ، قال الخليل: إلاَّ أن العامة اجتمعوا على تفرقةِ ما بين عباد الله والعبيدِ المملوكين، يقال: هذا عبدٌ بيِّن العُبُودَة، و لم نسمَعْهم يشتقُّون منه فعلاً،

([6]) منقول بتصرف يسير من "عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر"، للشيخ الفوزان.

ولو اشتق لقيل عَبُد؛ أي: صار عبدًا وأقرَّ بالعُبُودة، ولكنّه أُمِيت الفعلُ فلم يُستعمل، قال: وأمّا عَبَدَ يعبُد عِبادةً فلا يقال إلاَّ لمن يعبُد اللهَ – تعالى – يقال منه: عَبَد يعبُد عبادة، وتعبَّد يتعبَّد تعبُّدًا، فالمتعبِّد: المتفرِّد بالعبادة، واستعبدتُ فلانًا: اتخذتُه عبدًا.

وأمّا عَبْد في معنى خَدَم مولاه، فلا يقال: عبَدَه، ولا يقال: يعبُد مَولاه، وأما قولنا: تعبَّدَ فلانٌ فلانًا، إذا صيَّره كالعبد له، وإن كان حُرًّا، قال:

تَعبَّدَنِي نِمْرُ بنُ سعدٍ وَقَدْ أُرَى وَنِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطِعُ

ويقال: أعْبَدَ فلانٌ فلانًا؛ أي: جعله عبدًا، ويقال للمشركين: عَبَدة الطاغوتِ والأوثان، وللمسلمين: عُبّادٌ يعبدون الله – تعالى – وذكر بعضُهم: عابدٌ وعَبْدٌ، كخادم وخَدَمٌ، وتأنيثُ العَبْد عَبْدَةٌ، كما يقال: مملوك ومملوكة، قال الخليل: والعِبِدَّاء: جماعة العَبيد الذين وُلِدُوا في العُبودية، ومن الباب: البعير المعبَّد؛ أي: المهنُوء بالقَطِران، وهذا – أيضًا – يدلُّ على ما قلناه؛ لأن ذلك يُذِلُّه ويَخفِض منه، قال طرفة:

إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ

والمعبَّد: الذلول، يوصَف به البعير أيضًا، ومن الباب: الطريق المُعَبَّد، وهو المسلوك المذلَّل.

والأصل الآخَر: العَبَدة، وهي القُوَّة والصَّلابة؛ يقال: هذا ثوبٌ له عَبَدة، إذا كان صَفيقًا قويًّا، ومنهُ علقمة بن عَبَدَة، بفتح الباء، ومن هذا القياس العَبَد، مثل الأنَف والحميّة، يقال: هو يَعْبَدُ لهذا الأمر.

وفسِّر قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:81]؛ أي: أوَّلُ مَن غَضِبَ عَنْ هذا وأنِف من قولِه، وذُكر عن عليٍّ – رضي الله عنه – أنّه قال: عَبِدتُ فصَمَتُّ؛ أي: أنِفْتُ فسكَتُّ.

وقال:

وَيَعْبَدُ الْجَاهِلُ الْجَافِي بِحَقِّهِم بَعْدَ الْقَضَاءِ عَلَيْهِ حِينَ لاَ عَبَدُ

وقال آخر:

وَأَعْبَدُ أَنْ تُهْجَى كُلَيْبٌ بِدَارِمِ

أي: آنف من ذلك وأغضبُ منه، في حديث أبي هريرة: ((لا يَقُل أحدكم لمملوكه: عَبْدي وأَمَتي، وليقل: فتايَ وفتاتي))؛ هذا على نفي الاستكبار عليهم وأَنْ يَنْسُب عبوديتهم إليه، فإن المستحق لذلك الله – تعالى – هو ربُّ العباد كلهم والعَبيدِ، وجعل بعضهم (العِباد) لله، وغيرَه من الجمع لله والمخلوقين، وخصَّ بعضهم بالعِبِدَّى العَبيدَ الذين وُلِدوا في المِلْك، والأُنثى عَبدة، قال

الأَزهري: اجتمع العامة على تفرقة ما بين عِباد الله والمماليك، فقالوا: هذا عَبْد من عِباد الله، وهؤلاء عَبيدٌ مماليك، قال: ولا يقال: عَبَدَ يَعْبُدُ عِبادة إلا لمن يَعْبُد الله، ومن عبد دونه إِلهًا فهو من الخاسرين، قال: وأَما عَبْدٌ خَدَمَ مولاه، فلا يقال: عَبَدَه، قال الليث: ويقال للمشركين: هم عَبَدَةُ الطاغوت، ويقال للمسلمين: عِبادُ الله يعبدون الله.

والعابد: المُوَحِّدُ، قال الليث: العِبدَّى: جماعة العَبيد الذين وُلِدوا في العُبودِيَّة، تَعْبِيدَةُ ابنُ تعبيدةٍ؛ أَي: في العُبودة إِلى آبائه، قال الأَزهري: هذا غلط، يقال: هؤلاء عِبدَّى الله؛ أَي: عباده.

وفي الحديث الذي جاء في الاستسقاء: هؤلاء عِبدَّاكَ بِفِناءِ حَرَمِك؛ العِبدَّاءُ، بالمد والقصر، جمع العبد.

وفي حديث عامر بن الطفيل: أَنه قال للنبي ﷺ: ما هذه العِبدَّى حوْلَك يا محمد؟ أَراد فقَراءَ أَهل الصُّفَّة، وكانوا يقولون: اتَّبَعَه الأَرذلون، قال شمر: ويقال للعبيد مَعْبَدَةٌ، وأَنشد للفرزدق:

وَمَا كَانَتْ فُقَيْمٌ حَيْثُ كَانَتْ بِيَثْرِبَ غَيْرَ مَعْبَدَةٍ قُعُودِ

قال الأَزهري: ومثلُ مَعْبَدة جمع العَبْد مَشْيَخَةٌ جمع الشيْخ، ومَسْيَفة جمع السَّيْفِ، قال اللحياني: عَبَدْتُ الله عِبادَة ومَعْبَدًا.

وقال الزجاج في قوله – تعالى –: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: المعنى: ما خلقتهم إلا لأَدعوهم إلى عبادتي وأَنا مريد للعبادة منهم، وقد علم الله قبل أن يخلقهم من يعبده ممن يكفر به، ولو كان خلقهم ليجبرهم على العبادة لكانوا كلهم عُبَّادًا مؤمنين؛ قال الأَزهري: وهذا قول أَهل السنَّة والجماعة.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾:

المسلم له طريق واضح المعالم، بيّن الهدف والمقصد، فلا يخبط خبط عشواء، بل يسير بخطًى ثابتة رزينة، لا ارتجاج فيها ولا مرج، وعلى هذا تكون الآية إعلانًا للمقاطعة والمفاصلة بين المؤمنين، ومن دونهم من الكفار والمشركين؛ لأن هدفهم هو الإبعاد عن الحق؛ كما في قوله – تعالى –: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109].

وقد عبر القرآن الكريم عن النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم– بأنه ليس متصفًا بعبادة ما يعبدون، ولا هم عابدون ما يعبد، فكان وصفه هو ﷺ في الجملتين بوصفين مختلفين، بالجملة الفعلية تارة وبالجملة الاسمية تارة أخرى، فكانت إحداهما لنفي الوصف الثابت، والأخرى لنفي حدوثه فيما بعد.

أما هم، فلم يوصفوا في الجملتين إلا بالجملة الاسمية الدالة على الوصف الثابت؛ أي: في الماضي إلى الحاضر، و لم يكن فيما وُصفوا به جملة فعلية، والتي من خصائصها التجدد والحدوث، فلم يكن فيها ما يتعرض للمستقبل، فلم يكن إشكال، واللَّه تعالى أعلم.

في هذه السورة منهج إصلاحي؛ وهو عدم قبول ولا صلاحية أنصاف الحلول؛ لأن ما عرضوه عليه ﷺ من المشاركة في العبادة يعتبر في مقياس المنطق حلاً وسطًا لاحتمال إصابة الحق في أحد الجانبين، فجاء الردُّ حاسمًا وزاجرًا وبشدة؛ لأن فيه — أي: فيما عرضوه – مساواة للباطل بالحق، وفيه تعليق المشكلة، وفيه تقرير الباطل، إن هو وافقهم ولو لحظةً.

وقد تعتبر هذه السورة مميزة وفاصلة بين الطرفين، ونهاية المهادنة، وبداية المجابهة.

وقد قالوا: إن ذلك بناء على ما أمره الله به في السورة قبلها: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾؛ أي: وإن كنت وصحبك قلة، فإن معك الخير الكثير، ولمجيء ﴿قل﴾ لما فيها من إشعار بأنك مبلِّغ عن اللَّه، وهو الذي ينصرك، ولذا جاء بعدها حالاً (سورة النصر)، وبعد (النصر) تبُّ العدو، وهذا في غاية الوضوح، وللَّه الحمد.

وقفة بيانية مع سورة النصر

سنحاول في هذه الوقفة البيانية تتبُّع ظلال الآي الكريم في هذه السورة المباركة؛ قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 1-3].

بين يدي عنوان السورة:

اسم السورة يدل على الحقيقة الحتمية التي تنتج عن العمل الخالص، الذي بني على أسس سليمة من شوائب الشرك والرياء والغرور، و﴿إذا﴾ - كما هو معلوم لغويًّا -: تدلُّ على المستقبل، فالمستقبل فيه النصر إذا كان الشرط محققًا.

فما معنى ﴿النصر﴾ لغويًّا؟

النون والصاد والراء أصلٌ صحيح - كما جاء في قواميس اللغة - يدلُّ على إتيان خَيرٍ وإيتائه، ونَصَر اللهُ المسلمين: آتاهمُ الظّفرَ على عدوِّهم، ينصرهم نَصْرًا.

وانتصر: انتقم، وهو منه.

وأمَّا الإتيانُ فالعرب تقول: نصرت بَلَدَ كذا، إذا أتيتَه، قال الشَّاعر:

إِذَا دخَلَ الشُّهْرُ الْحَرَامُ فَوَدِّعِي ... بِلاَدَ تَمِيمٍ وَانْصُرِي أَرْضَ عَامِرِ

ولذلك يسمَّى المطرُ نَصْرًا.

ونُصِرتِ الأرضُ، فهي منصورة، ونَصَرَ الغيثُ الأرضَ؛ أي: غاثَها.

ونُصِرَتِ الأرضُ فهي مَنْصورَةٌ؛ أي: مُطِرَتْ، والنَّصْر العَطاء، قال:

إِنِّي وَأَسْطَارٍ سُطِرْنَ سَطْرَا ... لَقَائلٌ يَا نَصْرُ نَصْرًا نَصْرا

نَصَرَ المَظْلومَ نَصْرًا ونُصورًا: أعانَهُ، ونصر الغَيْثُ الأرضَ: عَمَّها بالجَوْد، ونَصَرَهُ منه: نَجَّاهُ وخَلَّصَهُ، وهو ناصِرٌ ونُصَرٌ - كصُرَدٍ - من قومٍ نُصَّارٍ وأنْصارٍ ونَصْرٍ، كصَحْبٍ.

والنَّصيرُ: الناصِرُ، وبهذا سمي أنْصارُ النبيِّ ﷺ بهذا الاسم، فقد غَلَبَتْ عليهمُ الصِّفَةُ، ورجلٌ نَصْرٌ، وقومٌ نَصْرٌ، والنُّصْرَةُ: حُسْنُ المَعونَةِ.

والاسْتِنْصارُ: اسْتِمْدادُ النَّصْرِ، والسُّؤالُ، نُصِرَت البلاد إذا مُطِرَت، فهي مَنْصُورة؛ أَي: مَمْطُورة، ونُصِر القوم إذا أُغِيثُوا، وفي الحديث: ((إنَّ هذه السَّحابةَ تَنصُر أَرضَ بني كَعْب))؛ أَي: تُمطرهم.

والنَّصْر العَطاء، قال رؤبة:

إِنِّي وَأَسْطَارٍ سُطِرْنَ سَطْرَا ... لَقَائلٌ يَا نَصْرُ نَصْرًا نَصْرا

ونَصَره ينصُره نَصْراً: أعطاه، والنَّصائِرُ: العطايا، والمُسْتَنْصِر السَّائل، ووقف أَعرابيّ على قوم فقال: انْصُرُوني نَصَركم الله؛ أَي: أَعطُوني أَعطاكم الله.

بين الفتح والنصر:

النصر – مما سبق –: كلمة جامعة للظفر والخير والعطاء، وليس هناك خير أفضل من أن يعم البسيطة الدين الحق، الذي هو مصدر كل خير وبركة؛ لقول الحق – سبحانه –:﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: 10 – 12]، وفي هذا إثبات بأن الخير لا يعمُّ الفرد أو الأسرة أو المجتمع أو الأمة، إلا بالرجوع للحق؛ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، وقد أضيفت هذه الكلمة إلى رب العزة في هذه السورة الكريمة؛ ليزداد المعنى عظمةً وخيرًا، فما أسعد القوم إذا عمهم نصر الله – تعالى.

و فيما يخص ﴿الفتح﴾، نقول: فَتَحْتُ الباب فانفتح، وفَتَّحْتُ الأبوابَ – شدّد للكثرة – فَتَفَتَّحَتْ هي، وبابٌ فُتُحٌ؛ أي: واسع مفتوح، وقارورة فُتُحٌ؛ أي: واسعة الرأس، قال الكسائي: ليس لها صِمامٌ ولا غلافٌ، وهو فُعُلٌ بمعنى مفعول، واستفتحتُ الشيءَ وافتتحتُهُ، والاستفتاح: الاستنصار، والمِفتاح: مفتاحُ البابِ وكلِّ مستغلق، والجمع: مفاتيحُ، ومَفاتِحُ أيضًا، والفَتْحُ النصر، فقد التقى ﴿النصر﴾ مع ﴿الفتح﴾ في المعنى، وهو اشتراك يدل على زيادة في الخير والظفر.

والفَتْحُ الماء يجري من عينٍ أو غيرها، وفاتحة الشيء: أوَّلُه؛ مثل فاتحة الكتاب، والفَتَّاحُ: الحاكم، هو اسم من أسماء الله الحسنى؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[سبأ: 26]، وتقول: افْتَحْ بيننا؛ أي: احْكم، والفُتاحة بالضم: الحُكْم، والفَتوحُ من النوق: الواسعة الإحليلِ، تقول منه: فَتَحَتِ الناقة وأفْتَحَتْ، فَعَلَ وأفْعَلَ بمعنًى.

والاسْتِفْتاحُ: الاسْتِنْصارُ، والافْتِتاحُ، ومن هنا نفهم وندرك أن ﴿الفتح﴾ و﴿النصر﴾ يسيران معًا، فأول الأمر النصر والظفر، ثم يأتي الفتح، كقول أبي تمام:

فَتْحٌ تُفَتَّحُأَبْوَابُ السَّماءِ لَهُ   وتَبْرُزُ الأَرْضُ في أَبْرَادِهَا القُشُبِ

و على ذلك – والله أعلم – جاء في الآية الثانية فعل الدخول، فلن يكون دخول بدون فتح، وجاء بصيغة المضارع الذي يفيد التحول والاستمرار، فكأن هذا الفتح ليس مقصورًا على زمن محدد أو مكان؛ بل هو مستمر ما دامت هذه الدنيا، فنصر الله ممتد إلى قيام الساعة.

شروط بقاء النصر والفتح:

"قيدوا النعم بالشكر"، هذه حقيقة أزلية تؤكدها الآية الثالثة من هذه السورة الكريمة، فلكي

نحافظ على تأييد الله – تعالى – لنا؛ لا بدَّ من هذه الشروط:

1 – التسبيح:

وهذه سلسلة من الأحاديث توضح دور التسبيح وفضله؛ فعَنْ أَبي ذَرٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((أَلا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلامِ إِلى اللهِ؟))، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ الْكَلامِ إِلى اللهِ، فَقَالَ: ((إِنَّ أَحَبَّ الْكَلامِ إِلى اللهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ))؛ أخرجه مسلم والنسائي، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلم: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الْكَلامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ((مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلائِكَتِهِ – أَو لِعِبَادِهِ –: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)).

وَعَنْ عَبدِاللهِ بنِ عَمرٍو – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ))؛ أخرجه البزار بإسناد جيد.

وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلى اللِّسانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلى الرَّحْمنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ))؛ أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

2 – الاستغفار؛ أي: طلب الغفران والعفو.

3 – التوبة؛ أي: العودة والأوبة إلى الله تعالى.

هذا،، والله أعلم.

وقفة بيانية مع سورة المسد

قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: 1-5].

توطئة:

في هذه السورة الكريمة يبيِّن لنا الحقُّ – سبحانه وتعالى – مصير الجاحد لنعم الله – تعالى – ومشاركة زوجه إياه في الجريمة النكراء، فحكم الحقُّ عليهما بالعذاب والخلود في جهنم وهما أحياء، مما يدل على صدقة نبوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم.

بين يدي اسم السورة:

المسَدُ، بالتحريك يعني: اللِّيف، وقيل: المَسَدُ: حبل من ليفٍ، أو خُوص، أو شعر، أو وبَر، أو صوف، أو جلود الإبل، أو جلود، أَو من أيّ شيء كان، وقد يكون من جلود الإبل أو من أَوبارِها، وأَنشد الأَصمعي لعمارة بن طارق – وقال أَبو عبيد: هو لعقبة الهُجَيْمِي –:

فاعْجَلْ بِغَرْبٍ مِثْلِ غَرْبِ طارِقِ
ومَسَـــدٍ أُمِـــرَّ مِـــنْ أَيَـــانِـــقِ
لَسْـــنَ بَأَنْيَـــابٍ وَلاَ حَقَائِـــقِ

يقول: اعْجَلْ بدَلْوٍ مثلِ دلْو طارِقٍ، ومَسَدٍ فُتِلَ من أَيانق، وأَيانِقُ: جمع أَيْنُق، وأَينق: جمع ناقة، والأَنْيابُ: جمع ناب، وهي الهَرِمةُ، والحقائق: جمع حِقَّة، وهي التي دخلت في السنة الرابعة، وليس جلدها بالقويّ؛ يريد ليس جلدُها من الصغير ولا الكبير، بل هو من جلد ثنية، أو رَباعِية، أو سَديس، أو بازِل؛ وخص به أبو عبيد الحبل من الليف، وعلى العموم فإن المسد هو الحبل المضفور المحكمُ الفتْل من جميع ذلك.

وقال الزجاج في قوله – عز وجل –: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾: جاء في التفسير أَنها سلسلة طولها سبعون ذراعًا يُسلك بها في النار، والجمع: أَمساد ومِسادٌ، وقيل أيضًا: هي السلسلة التي ذكرها الله – عز وجل – في كتابه، حيث قال – سبحانه وتعالى – في (سورة الحاقة): ﴿ذرعها سبعون ذراعًا﴾؛ يعني – جلَّ اسمه –: أن امرأة أبي لهب تسْلك في سلسلة طولها سبعون ذراعًا.

﴿حبل من مَسَدٍ﴾؛ أَي: حبل مُسِدَ أَيَّ مَسْدٍ؛ أَي: فُتِل فلُوي؛ أي: إنها تسلك في النار؛ أي: في سلسلةٍ ممسودة، قال الزجاج: المسد في اللغة: الحبل، إِذا كان من ليف المُقْل، وقد يقال لغيره، وقال ابن السكيت: المَسْدُ: مصدر مَسَدَ الحبل يَمْسُدُه مَسْداً، بالسكون، إذا أجاد فتله، وقيل:

حبل مَسَدٌ؛ أي: ممسودٌ قد مُسِدَ؛ أَي: أُجِيدَ فَتْلُهُ مَسْدًا، فالمَسْدُ المصدر، والمَسَدُ بمنزلة المَمْسُود، كما تقول: نفَضْت الشجر نَفْضًا، وما نُفض فهو نَفَضٌ، ودل قوله – عز وجل –: ﴿حبل من مَسَدٍ﴾: أَن السلسة التي ذكرها الله فُتِلت من الحديد فتلاً محكمًا، كأَنه قيل: في جيدِها حبلُ حديدٍ قد لُوي لَيًّا شديدًا؛ وقوله أَنشده ابن الأَعرابي:

أُقَرِّبُها لِثَرْوةِ أَعْوَجِيٍّ سَرَنداةً، لها مَسَدٌ مُغارُ

فسَّره، فقال: أي: لها ظهر مُدْمَج كالمَسَد المُغار؛ أَي: الشديد الفتل.

ومَسَدَ الحبلَ يَمْسُدُه مَسْداً: فتله.

وكل هذا يوصلنا إلى معنى عظيم، مفاده: أن الله – سبحانه – عاقب هذه المرأة التي اعترضت سبيل الدعوة، وحاكت المتاريس الكثيرة في طريق النبي الأكرم ﷺ بما يناسب عملها الشائن، وهي عبرة لكل من يحاول أن يقف حجرَ عثرةٍ أمام قافلة الدعوة الإسلامية، مهما كان نسبه، أو منزلته، أو ماله، وفي هذا عظة ودرس عظيم لمن يدعي أن الإسلام بالنسب وليس بالعمل.

وجاء في "المعاجم العربية": جارية مَمْسُودةٌ: مَطْوِيّةٌ مَمْشوقةٌ، وامرأة مَمْسُودةُ الخَلْق: إِذا كانت مُلتفّة الخَلْق ليس في خلْقها اضطراب، ورجل مَمْسُود: إِذا كان مَجْدُولَ الخَلْق، وجارية ممسودة: إِذا كانت حَسَنة طَيّ الخلق.

الجزاء من جنس العمل:

سبب نزول هذه السورة: هو قول أَبي لَهَبٍ لنبي – صلى الله عليه وسلم–: تَبًّا لكَ سائرَ اليَوْمِ، فما معنى التب؟ ولماذا عاقبه الله بنفس كلامه؟

جاء في "المعاجم العربية": أن التَّبَّ هو الخَسارُ، والتَّبابُ أيضًا: هو الخُسْرانُ والهَلاكُ، و"تَبًّا له" على الدُّعاءِ نُصِبَ؛ لأَنه مصدرٌ محمول على فِعْلِه، كما تقول: سَقْيًا لفلان، معناه: سُقِيَ فلان سَقْيًا، و لم يجعل اسمًا مُسْنَدًا إِلى ما قبله، وتَبًّا تَبيبًا على المُبالَغَةِ، وتَبَّ تَبابًا وتَبَّبَه: قال له: تَبًّا، كما يقال: جَدَّعَه وعَقَّره، تقول: تَبًّا لفلان، ونصبه على المصدر بإضمار فعل؛ أي: أَلْزَمه اللّهُ خُسْرانًا وهَلاكًا، وتَبَّتْ يَداهُ تَبًّا وتَبابًا: خَسِرتَا، وكأَنَّ التَّبَّ المَصْدرُ، والتَّباب الاسْمُ، وتَبَّتْ يَداهُ: خَسِرتا، والخسران المقصود: هو أنه لا يرى الفلاح أبدًا في أي شيء يعمله بيده، بل أصبح الخسران لصيقًا به على الأبد، والعياذ بالله.

ومن هنا نفهم ما جاء في التنزيل العزيز: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾؛ أي: ضَلَّتا وخَسِرَتا، وقال الراجز:

أَخْسِرْ بِهَا مِنْ صَفْقَةٍ لَمْ تُسْتَقَلْ
تَبَّتْ يدَا صَافِقِهَا، مَاذَا فَعَــلْ

وهذا مَثَلٌ قِيل في مُشْتَري الفَسْوِ، والتَّبَبُ والتَّبابُ والتَّبْبِيبُ: الهَلاكُ.

وفي قول أَبي لَهَبٍ: "تَبّاً لكَ سائرَ اليَوْمِ، أَلِهذا جَمَعْتَنا؟!" التَّبُّ: الهَلاكُ، فالبداية كانت تبًّا، والنهاية كذلك.

وتَبَّبُوهم تَبْبِيبًا؛ أَي: أَهْلَكُوهم، والتَّبْبِيبُ: النَّقْصُ والخَسارُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَبْبِيبٍ﴾ [هود: 101]؛ قال أَهل التفسير: ما زادُوهم غيرَ تَخْسِير.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: 37]؛ أَي: ما كَيْدُه إِلا في خُسْرانٍ؛ فكل من تكبَّر عن الحق كان مآله الخسران والهلاك في الدنيا والآخرة، وتَبَّ إِذا قَطَعَ، والتابُّ: الكبير من الرجال، والأُنثى تابَّةٌ، والتَّابُّ: الضعِيفُ، والجمْع أَتْبابٌ، هذلية نادرة، واسْتَتَبَّ الأَمرُ: تَهَيَّأ واسْتَوَى، واسْتَتَبَّ أَمْرُ فلان، إِذا اطَّرَد واسْتَقامَ وتَبَيَّنَ، وأَصل هذا من الطَّرِيق المُسْتَتِبِّ، وهو الذي خَدَّ فيه السَّيَّارةُ خُدُودًا وشَرَكًا، فوَضَح واسْتَبانَ لمن يَسْلُكه، كأَنه تُبِّبَ من كثرة الوطءِ، وقُشِرَ وَجْهُه، فصار مَلْحُوبًا بَيِّنًا من جَماعةِ ما حَوالَيْهِ من الأَرض، فَشُبِّهَ الأَمرُ الواضِحُ البَيِّنُ المُسْتَقِيمُ به.

حاصلة:

إن الزوجة "أم جميل" اختارت الحبل، فقد كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك، فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ لإيذائه، فقد كانت خبيثة مثل زوجها، وقد كانت تنشد:

مُذَمَّمًا عَصَيْنَا وَأَمْرَهُ أَبَيْنَــا
وَدِينَهُ قَلَيْنَــا

أي: أبغضنا، فكان لها الحبل المفتول المحكم في نار جهنم.

والزوج "أبو لهب" اختار التبَّ – الذي هو الهلاك والخسران – فكان له في الدنيا والآخرة، فالجزاء من جنس العمل.

لمسة بيانية

معنى الصمد بين العربية والقرآن الكريم

جاء في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1 - 4].

نبحر في بداية الأمر في اللغة العربية؛ بحثًا عن مدلولات كلمة (صمد)، فقد جاء في المعاجم العربية: صمد، وصَمَدَه يَصْمِدُه صَمْدًا، وصَمَد إليه، كلاهما: قَصَدَه.

وصَمَدَ صَمْدَ الأَمْر: قَصَدَ قَصْدَه واعتمده.

وتَصَمَّد له بالعصا: قَصَدَ، وفي هذا إشارة إلى أن المقصود في الشدائد هو الله - تعالى.

وفي حديث معاذ بن الجَمُوح في قتل أَبي جهل: فَصَمَدْتُ له، حتى أَمكنَتني منه غِرَّة؛ أَي: وثَبْتُ له، وقَصَدْته، وانتظرت غفلته.

وفي حديث علي: فَصَمْدًا صَمْدًا، حتى يَتَجلى لكم عمود الحق.

وبيت مُصَمَّد - بالتشديد - أَيْ: مَقْصود.

وتَصَمَّدَ رأْسَه بالعصا: عَمَد لُمْعْظَمه.

وصَمَده بالعَصا صَمْدًا، إِذا ضربه بها.

ومن هنا؛ فإن الصَّمَد، الذي هو عَلَم على الله - تعالى - تعني أن الله - تعالى - مقصود في الشدائد، وقضاء الحوائج، ودفع الضر، وجلب الخير، وكلُّ مدلولات الكلمة لُغويًّا ترجعنا إلى هذا المعنى الأساسي، الذي هو اللجوء إلى الرحمن الرحيم.

وجاء في "لسان العرب": صَمَّدَ فلان رأْسه تَصْميدًا: وذلك إِذا لف رأْسه بخرقة، أَو ثوب، أَو مِنْديلٍ، ما خلا العمامةَ، وهي الصِّمادُ.

والصِّمادُ: عِفاصُ القارورة، وقد صَمَدَها يَصْمِدُها، ابن الأَعرابي: الصِّمادُ سِدادُ القارُورة، وقال الليث: الصمادَةُ عِفاص القارورة.

وأَصْمَدَ إِليه الأَمْر: أَسْنَدَه (ومن هنا إذا أردت أن تحل مشاكلك، فأسند أمرك إلى الله تعالى)، والصَّمَد - بالتحريك -: السَّيِّدُ المُطاع الذي لا يُقْضى دونه أَمر، وقيل: الذي يُصْمَدُ إِليه في الحوائج؛ أَي: يُقْصَدُ؛ قال:

أَلاَ بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرَيْ بَنِي أَسَدْ ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

ويروى: بِخَيْرِ بني أَسد، وأَنشد الجوهري:

عَلَوْتُهُ بِحُسَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ ... خُذْهَا حُذَيْفُ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

والصّمَد: من صفاته – تعالى وتقدَّس – لأَنه أُصْمِدَتْ إِليه الأُمور، فلم يَقْضِ فيها غيرُه؛ وقيل: هو المُصْمَتُ الذي لا جَوْفَ له، وهذا لا يجوز على الله – عز وجل.

والمُصْمَدُ لغة في المُصْمَت، وهو الذي لا جَوف له، وقيل: الصَّمد الذي لا يَطْعَم، وقيل: الصمد: السيِّد الذي ينتهي إِليه السُّؤدَد، وقيل: الصمد: السيد الذي قد انتهى سُؤدَدُه، قال الأَزهري: أَما الله – تعالى – فلا نهاية لسُؤدَدِه؛ لأَن سُؤدَدَه غير مَحْدود.

وبهذا نقف إلى نتيجة عظيمة، تتمثل في أن أي اسم من أسماء الله – تعالى – يشير إشارة شاملة وكاملة إلى عزة الخالق وقدرته غير المتناهية — سبحانه.

وقيل: الصمد: الدائم الباقي بعد فناء خَلقه، وقيل: هو الذي يُصمَد إِليه الأَمر فلا يُقْضَى دونه، وهو من الرجال الذي ليس فوقه أَحد، وقيل: الصمد: الذي صَمَد إِليه كل شيء؛ أَي: الذي خَلق الأَشياءَ كلها، لا يَسْتَغْني عنه شيء، وكلها دالٌّ على وحدانيته.

وروي عن عمر أَنه قال: أَيها الناس، إِيَّاكم وتَعَلُّمَ الأَنساب والطَّعْن فيها، فوَالذي نفسُ محمد بيده، لو قلت: لا يخرج من هذا الباب إِلا صَمَدٌ، ما خرج إِلا أَقَلُّكم، وقيل: الصَّمَد هو الذي انتهى في سَؤْدَدِه، والذي يُقْصَد في الحوائج، وقال أَبو عمرو: الصمد من الرجال الذي لا يَعْطَشُ ولا يَجوع في الحرب، وأَنشد:

وَسَارِيَةٍ فَوْقَهَا أَسْوَدٌ بِكَفِّ سَبَنْتَى ذَفِيفٍ صَمَدْ

قال: السارية: الجبل المُرْتَفِعُ، الذاهبُ في السماء كأَنه عمود، والأَسود: العَلَم بِكَفِّ رجل جَرِيء، والصمَد: الرَّفِيعُ من كل شيء.

والصَّمْدُ المَكانُ الغليظ المرتفع من الأَرض، لا يبلغ أَن يكون جبلاً، وجمعه أَصْمادٌ وصِماد؛ قال أَبو النجم:

يُغَادِرُ الصَّمْدَ كَظَهْرِ الأَجْزَلِ

والمُصَمَّدُ: الصُّلْب الذي ليس فيه خَوَر.

أَبو خيرة: الصَّمْد والصِّماد: ما دَقَّ من غلظ الجبل وتواضَعَ واطْمأَنَّ ونَبَتَ فيه الشجر.

وقال أَبو عمرو: الصَّمْدُ: الشديد من الأَرض.

بناءٌ مُصْمَدٌ؛ أَي: مُعَلّى، ويقال لما أَشرَفَ من الأَرض الصَّمْدُ، بإِسكان الميم.

ورَوْضاتُ بني عُقَيْل يقال لها الصِّمادُ والرِبابُ.

والصَّمْدَة والصُّمْدة: صَخْرة راسية في الأَرض، مُسْتَوِيَةٌ بِمَتْنِ الأَرض، وربما ارتفعت شيئًا، قال:

مُخَالِفُ صُمْدَةٍ وَقَرِينُ أُخْرَى تَجُرُّ عَلَيْهِ حَاصِبَهَا الشَّمَالُ

وناقة صَمْدَة وصَمَدة: حُمِلَ عليها قلم تَلْقَحْ؛ الفتح عن كراع.

ويقال: ناقة مِصْمادٌ، وهي الباقية على القُرِّ والجَدْبِ، الدائمةُ الرِّسْلِ؛ ونوقٌ مَصامِدُ ومَصامِيدُ، قال الأَغلب:

بَيْنَ طَرِيِّ سَمَكٍ وَمَالِحِ وَلُقَّحٍ مَصَامِدٍ مَجَالِحِ

والصَّمْدُ: ماء للرباب، وهو في شاكلةٍ في شقِّ ضَرِيَّة الجنوبيِّ.

وفي الختام نصل إلى خلاصة مفادها: أن اللغة العربية بحر لا ساحل له، وأن القرآن الكريم نزل بها لقوله – تعالى -: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

الوسوسة من الجنة والناس

في هذه الأسطر سنحاول الدُّخول إلى عالم غريب، سُجِنَ فيه كثير من أهل الأهواء والعقول الضَّعيفة تحت سيطرة إبليس وأعوانه؛ لنكشف هذه الحقيقة التي غفل عنها كثير منَّا، رغم أنَّ القرآن الكريم والسنة المطهرة بيَّنا ووضَّحا خطر اتِّباع هذا المسلك الخطير، فكيف ينجح إبليس في إغرائنا؟

قال تعالى في سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: 1-6].

أمرنا ربُّنا على لسان سيدنا محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – أن نستعيذ بثلاث صفات له – سبحانه – من شر الوسوسة، ثم بين لنا الفاعل: "الوسواس"، الفعل: "الوسوسة"، المفعول به: "الناس".

فما الوسوسة؟

جاء في اللغة العربية: الوَسْوَسَة والوَسْواس بمعنى الصَّوت الخفي من ريح.

والوَسْواس: صوت الحَلْي، وقد وسْوَس وَسْوَسَة ووِسْواسًا، بالكسر، والوَسْوَسة والوِسْواس: حديث النَّفس، يقال: وَسوَسَتْ إليه نفسه وَسْوسة ووِسْواسًا، بكسر الواو، والوَسْواسُ، بالفتح: الاسم؛ مثل: الزِّلْزال والزَّلْزال، والوِسْواس، بالكسر: المصدر، والوَسْواس، بالفتح: هو الشيطان، وكلُّ ما حدَّثك ووَسْوس إليك، فهو اسم، وقوله – تعالى –: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 20]؛ يريد إليهما.

ولكنَّ العرب توصل بهذه الحروف كلها الفعل، ويقال لِهَمْس الصائد والكلاب وأَصواتِ الحلي: وَسْواس، وقال الأَعشى: تَسْمَع للحَلْي وَسْواسًا، إِذا انْصَرفت، كما اسْتَعان بِريح عِشْرِقٌ زَجل.

وعلى هذا؛ فالهَمْس هو الصوت الخفيُّ يهز قَصَبًا أَو سِبًّا، وبه سمي صوت الحلي وَسْواسًا؛ قال ذو الرمة: فَباتَ يُشْئِزُه ثَأْدٌ، ويُسْهِرهُ تَذَوُّبُ الرِّيح، والوَسْواسُ والهِضَبُ يعني بالوَسْواس: همس الصياد وكلامه، قال أَبو تراب: سمعت خليفة يقول: الوَسْوسة الكلام الخفي في اختلاط.

وفي الحديث: ((الحمد لله الذي ردَّ كَيْده إِلى الوَسْوَسة))، هي حديث النفس والأَفكار، ورجل مُوَسْوِس إِذا غلبت عليه الوَسْوسة، وفي حديث عثمان – رضي اللَّه عنه –: لما قُبِض رسول اللَّه ﷺ وُسْوِسَ ناسٌ، وكنت فيمن وُسْوِس؛ يريد أَنه اختلط كلامه ودُهش بموته ﷺ والوَسْواس: الشيطان، وقد وَسْوَس في صدره ووَسْوَس إِليه، ونقفل في نهاية المطاف إلى قوله – عز

وجل -: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: 4]، أَراد: ذي الوَسْواس، وهو الشيطان الذي يُوَسوس في صدور الناس، فيصدر أصواتًا خفية لها تأثير عجيب كتأثير الحلي، ومنها اشتقَّ المعنى كما رأينا سالفًا، وقيل في التفسير: إنَّ له رأْسًا كرأْس الحية يَجْثِمُ على القلب، فإذا ذكر العبدُ اللَّه خَنس، وإذا ترك ذكر اللَّه رجع إلى القلب يُوَسوس.

وقال الفرَّاء: الوِسْواس، بالكسر: المصدر، وكل ما حدَّث لك أَو وَسْوس، فهو اسم، وفلان المُوَسْوِس، بالكسر: الذي تعتريه الوَساوِس، رجل مُوَسْوِس، ولا يقال: رجل مُوَسْوَس؛ قال أَبو منصور: وإِنَّما قيل: مُوَسْوِس لتحديثه نفسه بالوَسْوسة؛ قال اللَّه - تعالى -: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: 16]، وقال رؤبة يصف الصياد: وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصًا ربَّ الفَلَقْ، يقول: لما أَحَسَّ بالصيد، وأَراد رميه، وَسْوس نفسه بالدُّعاء؛ حَذَرَ الخيبة، وقد وَسْوَسَتْ إِليه نفسه وَسْوَسة ووِسْواسًا، بالكسر، ووَسْوس الرجلَ: كلَّمه كلامًا خفيًّا، ووَسْوس إِذا تكلم بكلام لم يبينه.

وفي الختام:

نرى أنَّ النفس والشيطان كلاهما يشتركان في الوسوسة، ولا يطرد هذه الوسوسة إلا ذكر الله - تعالى - وتحصين النفس بالأذكار المأثورة.

فهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	2
مقدمة	3
تأملات إيمانية في رحاب خواتيم سورة القصص	5
وقفة بيانية مع سورة قريش	10
وقفة بيانية مع سورة الماعون	14
وقفة بيانية مع سورة الكوثر	18
تأملات بيانية في سورة الكافرون	21
وقفة بيانية مع سورة النصر	27
وقفة بيانية مع سورة المسد	30
لمسة بيانية معنى الصمد بين العربية والقرآن الكريم	33
الوسوسة من الجنة والناس	36
فهرس	38